عبد الله أبو جعفر المنصور

١٣٦ ـ ١٥٨ هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م

التعريف بأبي جعفر

هو عبد الله بن محمد بن علي العباسي، أبو جعفر المنصور. ولد في الحميمة في عام ٩٥ هـ وأمه أم ولد تدعى سلامة. ترعرع في وسط المجتمع الهاشمي. وطلب العلم، وهو شاب، من مظانّه وتفقه في الدين، ونال قسطاً من علم الحديث، فنشأ أديباً، فصيحاً، ملمّاً بسير الملوك[١].

انتقل أبو جعفر مع أخيه وأهله من الحميمة إلى الكوفة. ولما أفضت الخلافة إلى أخيه أبي العباس، كان ساعده الأشد في تدبير أمور الخلافة. فوَّلاه الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان، ووجهه إلى خراسان لأخذ البيعة له، كما عهد إليه من بعده.

توفي السفاح، وأبو جعفر في الحجاز أميراً على الحج، فأخذ له البيعة ابن أخيه عيسى بن موسى، في الأنبار، وكتب إليه بذلك.

اتصف المنصور بالشدة والبأس واليقظة والحزم والصلاح والاهتمام بمصالح الرعية. كره سفك الدماء إلاَّ بالحق، وعرف بالثبات عند الشدائد، ولا شك بأن هذه الصفة كانت من بين أبرز الصفات التي كفلت له النجاح.

الأوضاع الداخلية في عهد المنصور

عصيان عبد الله بن علي

تولى أبو جعفر المنصور الخلافة، ولم تكن قد توطدت دعائمها بعد. وقد خشي

---

(١) ابن كثير: جـ ١٠ ص ١٢١ ـ ١٢٢.

من منافسة عمه عبد الله بن علي الذي كان يطلب الخلافة، كما انتابه الخوف من تعاظم نفوذ أبي مسلم الخراساني، ومن خروج بني عمه آل علي بن أبي طالب على حكمه.

فكيف واجه المنصُور هذه المشاكل الثلاث؟

الواضح أن الخليفة كان يجمع الجرأة وبُعد الهمة والمكر والدهاء. فعزم على ضرب أعدائه بعضهم ببعض، حتى تخلو له الساحة السياسية.

كان لعبد الله بن علي رؤية خاصة من مشكلة الحكم، فهو بالإضافة إلى طمعه بالخلافة، فإنه انزعج من ابني أخيه أبي العباس وأبي جعفر بفعل ميلهم الشديد للفرس.

وكان أبو جعفر على حق حين خشي من طموحات عمه الذي خرج غازياً البيزنطيين في عهد أبي العباس على رأس جيش ضم عدداً كبيراً من العرب. ولما وصل إلى دلوك، بنواحي حلب، علم بوفاة السفاح وبيعة المنصور، فتوقف عن الزحف، ورحل إلى حران حيث اجتمع بأركان حربه، وتقرر بالنتيجة ترشيح نفسه للخلافة. فبايعه الجند، ومن ثم راح يزحف متجهاً نحو الجزيرة[1].

وهكذا استخدم عبد الله هذا الجيش الذي أُعِدَّ أساساً لغزو البيزنطيين، لتحقيق أطماعه في الخلافة، مدّعياً أن أبا العباس أقامه ولياً لعهده حينما أرسله لقتال مروان الثاني[2].

تصرف المنصور تجاه هذا الخطر تصرفاً حكيماً، دلَّ على أنه لا يحكِّم العواطف في القضايا الأساسية، فندب أبا مسلم لقتاله رغم حقده عليه، مظهراً بذلك براعة سياسية، لضرب أعدائه بعضهم ببعض، بالإضافة إلى أنه كان يأمل باستقطاب الخراسانيين في جيش عمه عن طريق حاكم خراسان الذي أبدى استعداداً للتصدي لحركة التمرد[3].

وتمكّن أبو مسلم، بدهائه السياسي والعسكري، من التغلب على عبد الله في معركة جرت بينهما قرب نصيبين في منطقة الجزيرة[4]. وفرَّ عبد الله بعد هزيمته إلى البصرة ملتجئاً إلى أخيه سليمان بن علي، وظل متوارياً عنده، إلى أن علم المنصور

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٤٧٤.
(٢) المسعودي: جـ ٣ ص ٢٨٩.
(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٤٧٥.
(٤) المصدر نفسه: ص ٤٧٥ ـ ٤٧٨.

بذلك، فأرسل يطلبه، وأعطاه من الأمان ما وثق به، ولما جاءه قبض عليه وسجنه، وذلك في عام (١٣٩ هـ/ ٧٥٧ م) وظل مسجوناً حتى عام (١٤٧ هـ/ ٧٦١ م) حين قتله المنصور[١].

نهاية أبي مسلم الخراساني

ساهم الفرس الخراسانيون بدور بارز في قيام دولة الخلافة العباسية، وعلى رأسهم أبي مسلم الخراساني، آملين تحقيق تطلعاتهم التي يمكن تلخيصها بما يلي:

أ ـ إيلاء السلطة الجديدة نظرة عطف لقضاياهم بعد الظلم الذي تعرضوا له إبان الحكم الأموي.

ب ـ الرغبة في التخلص من الحكم الآنف الذكر الذي أعطى العنصر العربي ميِّزة على ما عداه، تجلّت في ميادين الحياة كافة.

ج ـ إعادة مجدهم الغابر، وإحياء سلطانهم الفارسي المندثر (كسرى انوشروان)[٢].

وحدَّد العباسيون سياستهم تجاه هذه العناصر الإيرانية المتقدمة، في المجالين السياسي والعسكري، من منطلقين:

الأول: المشاركة والموازنة في إطار الطاعة لبني العباس.

الثاني: القمع إذا حصل خروج على هذا الولاء[٣].

وتعطينا هذه السياسة دوافع لأحداث كبيرة حفل بها العصر العباسي الأول.

وحينما اشتد ساعد دولة الخلافة العباسية، وتوضحت سياستها، لاحظ هؤلاء أن الدولة الجديدة لم تحقق تطلعاتهم بالشكل الذي يريدونه، ورأوا في إحجام العباسيين عن تنفيذ الوعود التي بذلوها، خلال فترة التحضير للثورة، تراجعاً لا يمكن الاطمئنان إليه، يضاف إلى ذلك، عدم اقتناعهم بالنهج الذي اختطه العباسيون والذي ارتكز على الإسلام والعروبة، نظراً لوجود أهداف أبعد وأعمق ومصالح أوسع ترتكز

---

(١) المصدر السابق: جـ ٨ ص ٧ ـ ٩. اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٠٢.

(٢) العمرو: ص ٣٠٧.

(٣) محمود والشريف: ص ١٠١.

على إحياء الإرث الفارسي القديم، وفتح المجال لانطلاق الآراء المجوسية[1].

لذلك تغير موقفهم من النظام الجديد، وقاموا بحركات تمردية بهدف الإطاحة بالدولة. وكانت حركة أبي مسلم الخراساني فاتحة هذه الحركات المعادية؛ فهي صورة صادقة من المواجهة بين القوة الخراسانية المعتدة بقوتها والمتطلعة إلى النفوذ والسلطان، وبين المركزية في سلطان الخلافة[2].

وفي تحديد ماهية حركة أبي مسلم، يتبين أن هذا الرجل كان يشعر بأنه المؤسس الحقيقي لدولة الخلافة العباسية. وأخذته العزة حين رأى التفاف الفرس حوله يأتمرون بأمره، ويرون فيه زعيماً قومياً. وراودته أحلام طموحات شخصية، من تفرد بحكم خراسان وبلاد إيران كلها، ونزعات استقلالية، أو تحقيق اللامركزية في الممارسة السياسية والإدارية. وتدل تصرفاته، بعد نجاح الثورة العباسية وعلاقته بالخلافة منذ عهد الخليفة الأول، دلالة واضحة على هذا الاتجاه.

فقد ثقلت وطأته على أبي العباس، وكثر خلافه له، وردّه لأمره[3]. وكان أبو جعفر شديد الحساسية تجاه طموحاته، فحثَّ أخاه على قتله، لكن السفاح لم يُبد ميلاً جدِّياً لذلك، بفعل بلائه في خدمة الدعوة العباسية، بالإضافة إلى كثرة أتباعه الذين يؤثرونه على دينهم ودنياهم، وقد يصبحون مصدر قلق للدولة[4].

أما علاقة أبي مسلم بأبي جعفر، فقد كانت سيئة جداً، فقد حدثت أحداث أدَّت إلى تباعد الرجلين منها:

ـ أراد أبو مسلم أن يحج في عام ١٣٦ هـ، وكان يطمع بإمارة الحج، إلا أن الخليفة أبا العباس السفاح ولاَّها أبا جعفر، مما دفع أبا مسلم إلى الغضب[5].

ـ يبدو أن أبا مسلم كان حريصاً على أن يُشعر أبا جعفر بقيمته، فأخذ يحط من هيبته بإنفاقه الأموال الكثيرة في إصلاح الطرق، وفي الترفيه عن الأعراب، وبتقدمه عليه في الطريق.

---

(١) عمر: ص ٩٠.
(٢) محمود والشريف: ص ١٠٢.
(٣) الجهشياري: ص ٩٣.
(٤) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٤٦.
(٥) الطبري: جـ ٧ ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

ـ ولما مات السفاح، وتولى أبو جعفر الخلافة، تباطأ في بيعته. وكانا عائدين من الحج، فكتب إليه يعزيه بوفاة أخيه دون أن يهنئه بالخلافة، أو يبعث إليه بالبيعة أو يتريث في طريقه حتى يلحق به، متجنباً لقاءه مما أدخل الروع والقلق في نفسه[1].

ولما تولى المنصور الخلافة، قرر التخلص منه، فنهج معه أسلوباً سياسياً قائماً على الأسس التالية:

ـ إبعاده عن منطقة نفوذه في خراسان حتى لا يؤلب عليه أهلها، ويستقل بحكمها.
ـ أن يلقاه وحيداً، مجرداً من النفوذ والسلطان.
ـ تلطيف الأجواء بينهما حتى يزيل الريبة من قلبه.
ـ جعله قريباً من مركز الخلافة حتى تسهل مراقبته.

وانفجرت الأزمة بين الرجلين بعد انتصار أبي مسلم على عبد الله بن علي، فقد حاز على أمواله وخزائنه، فأراد المنصور أن يشعره بأنه أحد عماله، فأرسل إليه رسولاً ليحصي الغنائم مما أزعجه وأغضبه وقال معلّقاً على ذلك: «أمين على الدماء، خائن في الأموال». ثم بعث إليه المنصور أن احتفظ بما في يدك. فصعب ذلك على أبي مسلم ومال إلى خلعه[2].

وازداد استعلاء أبي مسلم بعد ذلك، لدرجة أنه كان يأتيه الكتاب من الخليفة، فيقرأه ثم يلوي شدقه على سبيل السخرية منه[3].

وكتب المنصور إليه يهنئه بالنصر ويبلغه بتوليته الشام ومصر، لكن أبا مسلم كان من الدهاء بحيث لم يُخدع بمثل هذه المناورة التي تهدف إلى فصله عن جنوده من أهل خراسان، وفطن لغرض المنصور، وعلّق عليه بغضب قائلاً: «هو يوليني الشام ومصر، وخراسان لي»، وقرر العودة إلى خراسان مخالفاً بذلك أوامر الخليفة[4]. وقد خشي هذا الأخير، من عودته بفعل أنه سيعتصم بشيعته، ويصبح قادراً على تحدي السلطة المركزية، فيصعب عند ذلك إخضاعه أو التغلب عليه.

---

(١) المصدر السابق: جـ ٧ ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠.
(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٠٣. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٥٠.
(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٤٧١.
(٤) المصدر نفسه: ص ٤٨٢.

نتيجة لهذا التطور في المواقف، لجأ المنصور إلى أسلوب الدهاء للإيقاع بعدوه، فتوجه إلى المدائن، وكتب إليه يدعوه لزيارته، وهو في طريقه إلى خراسان، لأمر مهم. لكن أبا مسلم أدرك مرامي الخليفة، وردَّ عليه برسالة عبَّر فيها عما يجيش في صدره من حذر وحقد[١].

لم ييأس أبو جعفر من الإيقاع بخصمه. ولجأ هذه المرة إلى أسلوب الترغيب والتهديد. ونجح رسوله إليه، وهو أبو حميد المروزي، في التأثير عليه، وانتزع موافقته، بالرغم من معارضة أركان حربه[٢].

وهكذا تحقق مثول أبي مسلم أمام المنصور بعد عدة محاولات مزج فيها الخليفة السياسة بالتهديد.

ودارت بين الرجلين محاورة طريفة كانت أقرب إلى المحاكمة، وهي تكشف عن اعتداد أبي مسلم بنفسه، وبالجهود التي بذلها في خدمة بني العباس، وتنم عن دهاء المنصور، وخوفه من قيام القوة الخراسانية الفارسية بالانفصال عن السلطة المركزية، ذلك أن هذا الرجل بدأ يشكل خطراً يهدد أمن الدولة ووحدتها، كما تدل المحاورة على عداوة قديمة بينهما، إلا أنها تتضمن، في الوقت نفسه، اتهاماً خطيراً لأبي مسلم بمحاولة الوصول إلى الخلافة عن طريق[٣]:

ـ تجاوز العلاقات الاجتماعية، حين خطب لنفسه آمنة بنت علي، عمة الخليفة[٤].

ـ وضع نفسه في المكانة الأولى في الدولة، حين كتب إلى أبي جعفر بادئاً بنفسه[٥].

---

(١) راجع نص الرسالة عند الطبري. جـ ٧ ص ٤٨٣.

(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥. اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٠٣.

(٣) العمرو: ص ٣٢٢.

(٤) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٠٤. المعروف أن البيت العباسي احتل مكانة متميزة حتى عن البيوت العربية الأخرى. واعتبر العباسيون أن زواج العباسية من غير عباسي يعتبر زواجاً غير متكافىء، لذلك حرصوا على عدم تزويج بناتهم من أحد خارج أبناء بيتهم.

(٥) المصدر نفسه.

ـ ادّعاء النسب العباسي، حين زعم أنه ابن سليط بن عبد الله بن عباس[1]، أي أنه جعل لنفسه مكانة مساوية لمكانة والد المنصور محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

أما التهم الأخرى التي وجهت إليه هي:

ـ قتله لسليمان بن كثير نقيب النقباء في خراسان.

ـ قتله لعدد من رؤساء القبائل اليمنية أمثال علي بن جديع الكرماني وأخيه عثمان.

ـ قراره بالسير إلى خراسان دون استئذان الخليفة أو أخذ موافقته.

وبعد أن انتهى المنصور من مواجهة خصمه بالتهم المنسوبة إليه، لم يكن لأبي مسلم جواب إلا أن يذكّر الخليفة بخدماته في سبيل الدعوة العباسية. وقبل أن تضربه السيوف، استنجد بالخليفة وأخذ يعتذر أمامه عما بدر منه، لكن محاولته هذه لم تغنه عن القتل في اليوم الخامس والعشرين من (شهر شعبان عام ١٣٧ هـ/ شهر شباط عام ٧٥٥ م)[2].

وهكذا تخلص المنصور من هذا المنافس الخطر الذي طالما أقضَّ مضجعه مدفوعاً بعوامل سياسية وشخصية. وحينما أبدى ابن أخيه عيسى بن موسى احتجاجاً على طريقة القتل قال له المنصور: «والله ليس لك على وجه الأرض عدو أعدى منه، وهل كان لكم ملك في حياته؟»[3] وعندما علم جعفر بن حنظلة بقتل أبي مسلم قال للخليفة: «يا أمير المؤمنين عُدَّ من هذا اليوم خلافتك»[4]. وإن دلَّ ذلك على شيء، فإنه يدل على عظمة شأن أبي مسلم وقوة سلطانه.

ذيول مقتل أبي مسلم

حركة سنباذ

نجح أبو جعفر المنصور في القضاء على أبي مسلم، إلا أن ذكراه بقيت بين

---

(١) المسعودي مروج الذهب: جـ ٣ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢. ابن الأثير جـ ٤ ص ٣٥٤.

(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٤٩٠ ـ ٤٩١.

(٣) ابن الطقطقا: ص ١٧١.

(٤) الطبري: جـ ٧ ص ٤٩٢.

الفرس في خراسان والترك في بلاد ما وراء النهر. وظهرت في خراسان بعد مقتله حركات دينية سياسية وقومية غريبة عن الإسلام، كان أصحابها يظهرون الإسلام ويبطنون أهدافهم الدينية المجوسية، والسياسية الهدامة، والعنصرية الفارسية، واتخذوا من أبي مسلم رمزاً ووسيلة للتعبير عن معارضتهم للسلطة العباسية، والتنفيس عما في نفوسهم، ثم منقذاً منتظراً لتحقيق آمالهم وأهدافهم التي لم يحققها العباسيون[1].

شكّلت حركة سنباذ[2] أول رد فعل لمقتل الزعيم الفارسي، وقد خرج غضباً لقتله وطلباً للأخذ بثأره. التف حوله الأتباع، وغلب على نيسابور وقومس والري وتسمى باسم «فيروز أصبهذ» واستولى على خزائن أبي مسلم وأعلن أنه سوف يهاجم مكة ويهدم الكعبة انتقاماً[3].

والواقع أن هذه الحركة اتسمت بثلاثة دوافع: **سياسية، عقدية، وعنصرية.**

فمن حيث الدافع السياسي، فقد عزم هذا الرجل على الأخذ بثأر أبي مسلم من قاتله الخليفة العباسي المنصور، فكانت انتفاضته موجهة ضد هذا الخليفة، وضد النظام العباسي، وما يمثله من اتجاه سياسي نحو الحد من نفوذ الخراسانية.

ومن حيث الدافع العقدي، فقد اشتقت هذه الحركة مبادئها من الخرّمية والمزدكية القديمة. واعتقد أتباعها بإمامة أبي مسلم وأزليته وأنه لم يمت[4]. والحقيقة أنها حركة مجوسية موجهة ضد المسلمين بدليل انتحاله للاسم الفارسي «فيروز أصبهذ»[5]، وإظهاره العزم على هدم الكعبة.

---

(١) عمر: ص ٢٢١.

(٢) اتخذت هذه الحركة اسم الرجل الذي تزعمها وهو سنباذ. كان هذا الرجل مجوسياً من إحدى قرى نيسابور يقال لها أهروانة. راجع ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٥٧.

(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٤٩٥.

(٤) المصدر نفسه. المسعودي: جـ ٣ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤. ابن الأثير جـ ٤ ص ٣٥٧.

(٥) فيروز اسم من الأسماء التي سبق أن أطلقت على العديد من الرجال البارزين في تاريخ الأمبراطورية الفارسية. أما أصبهذ، فهو اللقب الذي كان يُمنح لحكام بعض المناطق في هذه الأمبراطورية.
راجع: العمرو. مرجع سابق ص ٣٢٩.

أما من حيث الدافع العنصري، فقد تطلع سنباذ إلى إعادة إحياء الدولة الفارسية، وتقوية العنصر الفارسي ضد الدولة العربية، بالرغم من أن العباسيين خالفوا الأمويين في سياستهم تجاه الموالي، إلا أنهم (الفرس) اعتبروا دولة هؤلاء استمراراً للدولة الأموية باعتبارهم ممثلين للعنصر العربي.

وعندما تفاقم أمر سنباذ أرسل إليه أبو جعفر جيشاً بقيادة جهور بن مرّار العجلي اصطدم به بين همذان والري وقضى عليه. وهكذا انتهت هذه الحركة في عام (١٣٧ هـ/ ٧٥٥ م) بعد سبعين يوماً من قيامها[١].

حركات أخرى

لم يختفِ أنصار أبي مسلم تماماً بعد القضاء على حركة سنباذ. والحقيقة أن الخليفة العباسي، وإن نجح في القضاء على هذه الحركة، إلا أنه لم يتمكن من القضاء على الأفكار التي دفعت سنباذ إلى الانتفاضة.

لذلك، شهدت بلاد فارس وما وراء النهر قيام عدة حركات مناهضة للحكم العباسي، اقترنت باسم أبي مسلم على نحو أو آخر، والتزمت بالأهداف نفسها، من حيث إنها تُعدُّ خارجة على الدين الإسلامي والدولة العباسية. وكانت السمة البارزة والمميزة لأنصارها عند خروجهم هي ارتداء البياض، وحمل الأعلام البيضاء، لذلك أطلق على هذه الجماعات اسم «المبيضة»[٢].

من هذه الحركات:

الحركة الراوندية التي قامت في عام (١٤١ هـ/ ٧٥٨ م).

وحركة أستاذسيس التي انطلقت من خراسان في عام (١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م).

وقد جهد المنصور في القضاء عليها، فحاربها دون هوادة، ونجح في ذلك.

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٤٩٥. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٥٧.

(٢) بارتولد: مرجع سابق ص ٣١٧.

العلاقة مع الطالبيين

خروج محمد النفس الزكية:

لم ينسَ الطالبيون حقهم في الخلافة منذ مقتل الحسين في كربلاء. فإنهم ما برحوا، في كل أدوار حياتهم، يتذرعون إلى نيل حقهم بكل وسيلة، فإن وجدوا الفرصة سانحة اغتنموها، وإذا آنسوا من أنفسهم ضعفاً ركنوا إلى الهدوء. ولما قامت الدعوة العباسية انخرط بعض الشيعة فيها، ظناً منهم بأنها طالبية، في حين وقف بعضهم الآخر على الحياد، تاركين الأمور تجري في مجراها الطبيعي، على الرغم من تأييدهم لفكرة الثورة على الأمويين.

ويبدو أن العلاقة بين العباسيين والطالبيين، أثناء فترة الدعوة العباسية، كانت حسنة، وعندما انتهت الثورة، بانتقال الخلافة إلى آل العباس، اعتبر الطالبيون، خاصة الفرع الحسني، أن العباسيين خدعوهم، واستأثروا بالخلافة مع أنهم أحق بها. ولم يكن من اليسير أن يتحملوا كل ما تحملوه من مضايقات الأمويين لتقوم بعد ذلك دعوة باسمهم تنزع حقهم، لذلك ناصبوهم العداء.

وحاول العباسيون، من جانبهم، في مستهل حياتهم السياسية، أن يتعاونوا مع الطالبيين لإعطاء دولتهم الناشئة الفرصة لتثبيت أقدامها، ثم بدأ الفريقان في التباعد، شيئاً فشيئاً، حين أعلن السفاح في خطبة له في الكوفة أن الخلافة عباسية، وستبقى عباسية، وأنه ليس لأحد أي حق فيها، قاصداً بذلك الطالبيين[1]. إلا أن العلاقة بين الطرفين اتسمت بالهدوء والمسالمة، ثم تبدلت بعد ذلك في عهد المنصور، فمالت نحو التأزم ثم الاصطدام. ذلك أن هذا الخليفة، وقد شعر أن المعارضة الطالبية أضحت خصماً عنيداً، راح يهدد كل من يخرج على الدولة.

والواقع أن أول الخارجين من الطالبيين، على حكم العباسيين، كان محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية، وأخوه إبراهيم، وهما من الفرع الحسني، في حين ركن الإمام جعفر الصادق، وهو من الفرع الحسيني، إلى المهادنة، واستطاع أن يقنع أتباعه بأن الظروف غير مناسبة لإقامة الخلافة الطالبية.

ويبدو أن محمداً هذا كان يدعو إلى نفسه، ويتطلع إلى الخلافة قبل وصول

---

(١) راجع نص الخطبة عند الطبري: جـ ٧ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٦.

العباسيين إلى الحكم، وأضحى له شيعة يدعون له في الحجاز والعراق وخراسان، وراح يتهيأ لليوم الموعود. إلا أنه أخطأ في تقديراته حين ظن أن الدعوة التي انتشرت في خراسان، والتي رفعت شعار الرضا من آل البيت، ليست إلا دعوة للطالبيين، وهو مرشحهم للخلافة[١].

ولما تسلم العباسيون السلطة، لم يرضَ عن ذلك، وامتنع عن مبايعة الخليفة السفاح، وحاول الخروج على حكمه، فمنعه والده لما للخليفة عليه من الفضائل[٢].

ولما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة، امتنع الأخوان محمد وإبراهيم عن مبايعته، وأقاما في الحجاز في مكان سري[٣]، مما أزعجه وأقضَّ مضجعه. لذلك جدَّ في البحث عنهما حتى اكتشف مكانهما.

واعتقد محمد النفس الزكية آنذاك، أن ظروف خروجه باتت مؤاتية بفعل عدة عوامل لعل أهمها:

- تضييق العباسيين عليه.
- قيام المنصور بصب جام عذابه على أسرته بهدف الضغط عليهم لتسليمه مع أخيه.
- كما وصلته رسائل تأييد من أمراء الأقاليم وكبار قادة المنصور، يحثونه على الخروج[٤].
- اعتراف كثير من الناس بإمامته، خاصة أهل الحجاز.
- إلحاح أصحابه عليه بالخروج بعدما سئموا الانتظار.

---

(١) يبدو أن محمداً استند إلى مقررات المؤتمر الذي عقد بالأبواء، في أواخر عهد الدولة الأموية، الذي دعا إليه والده عبد الله بن الحسن، وحضره وجوه الطالبيين والعباسيين، وكان الهدف منه ترشيح النفس الزكية للخلافة، راجع حول هذا المؤتمر: ابن الأثير، جـ ٤ ص ٣٧٠. ابن الطقطقا: ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين ص ١٦٥.

(٣) ابن الأثير: جـ ٤ ـ ص ٣٧٠.

(٤) مع الملاحظة بأنها كانت رسائل تضليل من قادة المنصور وبإيعاز منه بهدف التعجيل من ظهوره. راجع: المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٣.

ـ تأييد والده له بالخروج.
ـ إفتاء الإمام مالك بجواز بيعته، ونقض بيعة المنصور.
ـ اعتقاده أنه أضحى أقوى من المنصور[١].

لذلك أعلن دعوته وظهر في المدينة في مستهل (شهر رجب عام ١٤٥ هـ/ شهر آب عام ٧٦٢ م) وتلقب بأمير المؤمنين[٢]، في حين ذهب أخوه إبراهيم إلى البصرة ليرفع لواء الانتفاضة فيها[٣]، وبدأ أنصار الطالبيين يرتدون البياض.

وظهر ما كان خافياً على المنصور، فعرف أن المدينة هي قاعدة محمد النفس الزكية ومنطلقه، فركّز اهتمامه على الحجاز لمنع انتشار دعوته، ثم لجأ إلى المناورة السياسية، فدعاه إلى حل الخلافات بينهما سلمياً، ودخل من أجل ذلك في سلسلة من المراسلات معه[٤]، واتخذ في الوقت نفسه التدابير الضرورية لعزل الحجاز عن باقي الأمصار، لقطع الإمدادات عنه، وصد الناس عن دعوته، ثم ارتحل إلى الكوفة، وهي مهد الشيعة، فأحكم قبضته عليها[٥]، كما نجح في دفع الخراسانيين عن مساندته[٦].

وجاءت الخطوة الحاسمة للقضاء على حركته، على يد الفرق العسكرية، وسرعان ما وجد محمد نفسه يواجه الكثير من المتاعب بفعل عدة عوامل أهمها:

ـ إحجام معظم أهل المدينة عن مساعدته[٧].

ـ لقد أخطأ في تقدير خروجه، فقد كان متفقاً مع أخيه إبراهيم أن يخرج في البصرة في اليوم الذي يخرج هو فيه في المدينة، لكن أخاه لم يخرج في اليوم المحدد لمرض ألّم به، وأن محمداً خرج قبل اليوم المحدد نتيجة الضغوط عليه، مما أفقده عنصر التنسيق الضروري للنجاح، وأعطى المنصور فرصة طيبة استغلها لضرب الأخوين كل على حدة.

---

(١) المسعودي: جـ ٣ ص ٢٥٣. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣.
(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣١٥.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) تجد نص الرسائل المتبادلة عند الطبري جـ ٧ ص ٥٦٦ ـ ٥٧٢.
(٥) المصدر نفسه: ص ٥٦٥.
(٦) المصدر نفسه: ص ٥٤٧.
(٧) المصدر نفسه ص ٥٨٢ ـ ٥٨٣.

ـ لقد تردَّد في مواجهة خصمه.

وأخيراً حدثت المعركة الفاصلة بين الطرفين في صبيحة اثنتي عشرة ليلة من شهر رمضان، وانتهت بانتصار الجيش العباسي، ومقتل محمد النفس الزكية عصر يوم الإثنين في الرابع عشر من الشهر المذكور. وأمَّن عيسى بن موسى، قائد الجيش العباسي الذي تولى المهمة، أهلَ المدينة، إلا أنه صادر ممتلكات بني الحسن بن علي[1].

وهكذا خُتم أول فصل من فصول هذه المأساة، ولم يبقَ أمام المنصور إلا القضاء على حركة إبراهيم في البصرة.

خروج إبراهيم بن عبد الله:

استقر إبراهيم بن عبد الله في البصرة، بعد أن ترك الحجاز، حيث وجد فيها الأرضية الصالحة لنمو وانتشار الأفكار الموالية للطالبيين. فانضوت الزيدية والمعتزلة تحت لوائه، والتف حوله الضعفاء، والطبقات الفقيرة والمحرومة، أملاً في إنقاذهم مما يعانونه من فاقة، وأيده الأمويون فيها، وساندته العثمانية، لما له من صلة النسب بعثمان بن عفان، وشَّد أزره فقهاء البصرة[2].

وتمكن بواسطة هؤلاء جميعاً من أن يسيطر، بسهولة، على البصرة، ودانت له الأهواز، وفارس، والمدائن[3] أما الكوفة المتوثبة للتخلص من الحكم العباسي، فقد أحكم المنصور قبضته عليها مما حرمه من مساعدة أبنائها[4].

ونمت حركة إبراهيم، وتوافدت الجموع على البصرة لتبايعه، فقويت شوكته، وشعر بأن الفرصة أضحت سانحة للاصطدام بالخليفة. ولما جاءته الأخبار بقتل أخيه دعا إلى نفسه بالخلافة، وتسمى بأمير المؤمنين وبايعه أتباعه على ذلك[5].

الواقع أن هذه الحركة تعتبر من أشد الحركات التي واجهت المنصور، بفعل أن

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٥٩٦. الأصفهاني: ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) المسند، عبد الله بن علي: العلويون في الحجاز ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(٣) ابن كثير: جـ ١٠ ص ٩٢.

(٤) الطبري: جـ ٧ ص ٦٤١.

(٥) ابن كثير: جـ ١٠ ص ٩١. ابن الطقطقا: ص ١٦٧.

سيطرة إبراهيم على مناطق واسعة وغنية أثَّرت تأثيراً سلبياً على قدرات الدولة، وخشيها الخليفة، فحاول الهرب من الكوفة ليلحق بابنه المهدي في الري، كما حاول مراسلة إبراهيم بشأن عقد صلح بينهما[١].

وأخيراً وقعت المواجهة المسلحة بين الطرفين في باخمرا، وهي قرية قريبة من الكوفة، في (شهر ذي القعدة عام ١٤٥ هـ/ شهر كانون الثاني عام ٧٦٣ م)، وكادت الهزيمة تلحق بالجيش العباسي الذي قاده عيسى بن موسى وبدا النصر قاب قوسين أو أدنى من العلويين، لولا أن تغير وجه المعركة فجأة عندما أُصيب إبراهيم بسهم في عنقه أودى بحياته، فاضطرب نظام جيشه، وشنَّ الجيش العباسي هجوماً مضاداً كفل له النصر[٢].

الأوضاع في المغرب

استولى عبد الرحمن بن حبيب، وهو أحد الزعماء العرب البارزين، على السلطة في إفريقية (المغرب الأدنى) في ظل الفوضى التي ضربت العالم الإسلامي أثناء الصراع على السلطة بين الأمويين والعباسيين، ودخل القيروان، متطلعاً إلى إقامة دولة مستقلة[٣].

ويبدو أن عبد الرحمن هذا لم يكن رجل دولة، وبدا من خلال تصرفاته السياسية أنه يفتقر إلى فن الحكم، فذهب ضحية جشعه وأنانيته، فقد اغتيل في عام (١٣٧ هـ/ ٧٥٤ م) في ظل فوضى الصراع على السلطة[٤].

في هذه الأثناء، برز الخوارج على مسرح الحياة السياسية في إفريقية، وكانوا متربصين بالبلاد يحاولون انتزاعها، ونجحوا في استقطاب بعض قبائل البربر[٥] الذين تأثروا بآرائهم، وتأسيس دول لهم فيها.

---

(١) المسند: ص ١٧٢.

(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٦٤٦ ـ ٦٤٧.

(٣) ابن عذارى: جـ ١ ص ٦٥. مؤنس، حسين: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي: جـ ١ ص ١٦٤.

(٤) مؤنس: المرجع نفسه. ص ١٦٦.

(٥) يلاحظ أن غالبية البربر، الذين اشتركوا في حركات الخوارج، كانوا زناتيين أي من البدو البتر. مؤنس: جـ ١ ص ١٦٥.

وشهد المغرب، آنذاك، ظهور إمارتين خارجيتين قامتا على أكتاف البربر برئاسة زعماء من العرب، واستقلتا استقلالاً يكاد يكون تاماً.

أما الإمارة الأولى فهي إمارة سجلماسة. وهي دولة بني مدرار أو بني واصول الصفرية[1] وتدين بالمذهب الصفري. نشأت في عام (١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م) في جنوبي المغرب الأقصى في المنطقة شبه الصحراوية التي تضم السهوب والواحات القائمة في الجنوب من جبال الأطلس وعلى أكتاف الصحراء من ناحية الشمال.

تُعدّ هذه الإمارة من أبرز إمارات الخوارج المستقلة التي تأسست في عهد الخليفة المنصور، وعمّرت مائة وأربعين عاماً. اشتهرت بغناها وبموقعها التجاري الهام كما شكلت سوقاً كبيراً تتم فيه مقايضة السلع الواصلة إليها من الجنوب والغرب، لتنقل إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، أو من هذا الحوض إلى قلب إفريقية.

أما الإمارة الثانية، فهي الإمارة الإباضية، نسبة إلى عبد الله بن إباض المري، قامت في المغرب الأوسط عام (١٤٤ هـ/ ٧٦١ م). أسسها رجل فارسي، على الغالب، هو عبد الرحمن بن رستم، وقد حمل لقب الإمام. كانت عاصمة هذه الإمارة مدينة تاهرت التي بناها المؤسس في عام (١٥٠ هـ/ ٧٦٣ م)، وقدر لخلفائه أن يحكموا أكثر من مائة وثلاثين عاماً، وكانوا أشد الخوارج تعصباً. وقام مجتمع هذه الإمارة على أساس المساواة الكاملة بين الناس والحياة الخلقية المتطهرة، لهذا وجد البربر أن مذهب الخوارج يناسب وضعهم الاجتماعي والسياسي فاتخذوه عنواناً للمعارضة العنصرية.

ويبدو أن الخلاف قد أخذ يدب بين الجماعتين الخارجيتين الصفرية والإباضية، بفعل اختلاف الأفكار الدينية.

وأضحت إفريقية تحت رحمة الخوارج تتبادل فيها السلطان عليها جماعة بعد جماعة مما دفع أهلها للاستغاثة بالخلافة العباسية.

لم يقف المنصور أمام هذه الحركات المناهضة مكتوف اليدين، فأرسل

---

(١) أسس هذه الإمارة رجل سوداني يدعى عيسى بن يزيد المكناس الصفري. أما تسميتها ببني مدرار أو بني واصول فنسبة إلى اسم ثالث أمرائها وهو أبو القاسم سمعون بن واصول الملقب بمدرار.

الحملات العسكرية إلى المغرب لإعادة بسط سيطرة الدولة عليه.

وتمكنت إحدى هذه الحملات، بقيادة يزيد بن حاتم بن قبيصة، من الانتصار على الخوارج الإباضية في عام (١٥٥ هـ/ ٧٧٢ م). ونعمت القيروان، بعد أن استعادتها الجيوش العباسية بفترة طويلة من الهدوء والاستقرار في ظل حكم أهل السنة.

وهكذا تمكن المنصور من استعادة ولاية إفريقية، إلا أن نفوذه لم يتجاوزها إلى داخل المغرب.

إحياء دولة الخلافة الأموية في الأندلس

كانت الأندلس الولاية الأشد تأثراً بانتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين. فقد عانت من فوضى الصراعات العنصرية والإقليمية خلال مرحلة غياب السلطة المركزية التي استمرت بين عامي (١٢٤ ـ ١٣٨ هـ/ ٧٤٢ ـ ٧٥٦ م)، ونشبت الحروب الداخلية، بين القيسيين واليمنيين، وهزمت المضرية، اليمنية في شقندة، الواقعة أمام قرطبة في عام (١٣٠ هـ/ ٧٤٨ م)[١].

وسقطت أثناء ذلك دولة الخلافة الأموية على أيدي العباسيين في عام (١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م)، وأخذ الولاة العباسيون يتتبعون الأمويين ويقتلونهم. إلا أن أميراً أموياً استطاع النجاة من مطاردة هؤلاء، هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، فيمّم وجهه شطر المغرب.

اتصف عبد الرحمن بالطموح، فعزم على تأسيس دولة له في المغرب، إلا أنه اصطدم بمعارضة والي إفريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهري، فاتجهت أنظاره نحو الأندلس التي كانت أوضاعها مضطربة حيث وجد في هذا الإقليم الفرصة الأكثر منالاً من المغرب، ونجح خادمه بدر، الذي أرسله إلى هناك لدراسة الموقف، من تكوين نواة لقاعدة أموية اعتمدت على اليمنية.

والواقع أن اليمنيين، الذين يرتبطون عضوياً بالأسرة المروانية، رحبوا بتأييد الأمير الأموي للتحرر من قيود القيسيين الثقيلة، والأخذ بثأر قتلاهم في وقعة شقندة.

---

(١) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة: ص ٥٩.